مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 25 العدد:2 السّنة: الثّلاثي الثّاني 2023 ص: 657-673

فضل اللّغة العربيّة وأهميّتها في الدّرس التّراثيّ العربيّ

The preference and importance of the Arabic language in the Arab Patrimony lesson

أ. لعروسي نادية*

تاريخ الاستلام: 28-06-2021 تاريخ القبـول: 04-08-2021

ملخّص: تناول هذا البحث موضوع مكانة اللّغة العربيّة في الحقل البياني الإسلامي، حيث اعتبرها علماء البيان في الدّرس التّراثي آلة العلم ومقدّمة ضروريّة لا غنى عنها لتحصيل المعرفة الصّحيحة، وقد كان الدّاعي الأوّل والمباشر لهذا الاهتمام هو جريان الخطاب الشّرعي على لغة العرب، فالقرآن الكريم باعتباره المعجزة المعنويّة الكبرى، كان عربيًا فصيحًا معجزا لخاصتهم وعامتهم، وتأتي هذه الدّراسة في خضم احتدام الصّراع بين لغات العالم اليوم بعد ظهور العولمة اللّغويّة، حيث يصفها البعض بالتّخلف والعقم، لا تملك شروط استمرارها وديمومتها، لذلك كان من الضّروري الذّود عنها وإثبات براءتها من هذا الاتهام الخطير الذي يهدّد مصير الأمة الإسلاميّة برمتها.

الكلمات المفتاحيّة: الدّرس التّراثي العربي*؛ اللّغة العربيّة؛ الحقل البياني* الإسلامي*؛ اللّفظ؛ المعنى.

Abstract: This research deals with the issue of the importance of the Arabic language, Islamic scholars considered it as a science instrument and a necessary and indispensable introduction to the acquisition of correct scientific knowledge. The first and direct concern of this concern is the flow of the legal discourse on the language of the Arabs. The Noble Qur'an being the great moral miracle, was an eloquent Arabic miraculous for their people and their public,

* - المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر.
البريد الإلكتروني: laroussi29n@gmail.com، (المؤلّف المرسل).

and the second reason is that clarifying the meaning of the discourse depends on the factor of linguistic competence, this study comes under conflicts between the languages of today's world. Arabic language some described it as a sterile dead language. However, with the emergence of Linguistic globalization, it became to prove its innocence in the face of the accusations that threatens the fate of the Islamic nation.

Keywords: the Arab patrimony lesson; Arabic; Islamic graphic field; Pronunciation; the meaning

1. مقدّمة: إنّ اللّغة العربيّة هي كنه حياة الأمّة الإسلاميّة وقوامها، بل تدور معها وجودا وعدما، وتُعْتبر أمّ اللّغات السّاميّة، قد بلغت ذروة المجد، لأنّها حاملة لواء رسالة الإسلام العالميّة، وكانت لها أهميّة كبيرة عند علماء البيان في الدّرس التّراثي القديم، فاجتهدوا وقعدوا وابتكروا علوما متنوعة من نحو وصرف وعلوم القرآن وعلوم الحديث، وكانت جل هذه العلوم خادمة للنّص القرآني، لأنّ القرآن نزل بلسان عربيّ مبين، ويندرج هذا المقال كخطوة حاسمة لإبراز منزلة اللّغة العربيّة في الدّرس التّراثي الإسلامي، لأنّ اللّغة روح الأمة، والمحافظة عليها وإثرائها عن طريق البحث اللّغويّ والعلمي الممحصين هو صيانة للأمة من التّلاشي والأفول.

ونظرا لأهميّة العامل اللّغوي باعتباره مقوما أساسيا لوجودنا ولوحدة أمتنا فهناك من اعتبر القرآن الكريم بمثابة الحصن المتين الذي يضمن بقاء واستمرار اللّغة العربيّة فقوتها من قوته، بينما هناك من أنصار العصرنة والحداثة من حكم على لغتنا حكما استقرائيا من خلال مستعمليها والواقع المتدني والمزري الذي تعيشه المجتمعات العربيّة، واعتبرها لغة ميّتة وضعيفة بضعفهم، لأنّ هناك علاقة تلازم ضروري بين اللّغة وأهلها، وبين هذا وذاك يطرح التّساؤل الآتي: ما هي المكانة التي تحتلها اللّغة العربيّة في الحقل البياني الإسلامي؟ وهل تستمد اللّغة العربيّة قوتها من ذاتها أم من قوة النّص القرآني وجهود علمائها في شتّى مجالات المعرفة وآثارهم الباقيّة؟ أو بصيغة أخرى: هل عناصر قوة اللغة العربيّة صفات كامنة في ذاتها أم تستمد قوتها من قداسة القرآن وقوته؟

2. خصائص اللّغة العربيّة: إنّ اللّغة العربيّة لغة الاتساع والغنى، تتميز بالألفاظ الجزلة والرّونق والسّبك وحسن التّأليف، ممّا أضفى عليها صفتي المهابة والوقار حيث تحمل اللّغة العربيّة قيمتها في ذاتها، لأنّ مصدر قوتها صفة ذاتيّة كامنة في طبيعتها، إذ تتفرد عن سائر اللّغات بثروتها اللّغويّة الهائلة وتمتعها بصفات فريدة تؤهّلها للريادة واحتلالها الصّدارة في العالم، فمن بين خصائصها، ظاهرة التّرادف التي تعدّ ظاهرة لغويّة ذائعة ومتداولة في البيئة اللّغويّة الإسلاميّة، وتظهر في أساليب العرب في التّخاطب، وتعتبر من أقسام الدّلالة اللّفظيّة التي استقطبت جهود علماء الأصول، لأنّ معرفة مبحث الألفاظ وتنويعاته، يعد بمثابة الأساس الذي ينبني عليه تفسير النّصوص الشّرعيّة، والتّرادف هو عبارة عن الاتحاد في المفهوم، وقيل: هو توالي الألفاظ المفردة الدّالّة على شيء واحد باعتبار واحد، ويطلق على معنيين: أحدهما: الاتحاد في الصّدق، والثّاني: الاتحاد في المفهوم" [1]، ويعني التّرادف تعدّد الأسماء لمسمّى واحد، وكثيرا ما يأخذ في مقابل الاشتراك الذي يدلّ اللّفظ الواحد على مسمّيات كثيرة، كلفظ الجَونُ الذي يطلق على الأبيض والأسود، حيث يعرف لجرجاني المترادف: "ما كان معناه واحدا وأسماؤه كثيرة، وهو ضد المشترك، أخذا من التّرادف الذي هو ركوب أحد خلف الآخر، كأن المعنى مركوب واللفظين راكبين عليه، كالليث والأسد"[2]، ونجد في اللّغة العربيّة أمثلة حيّة على هذه الظّاهرة اللّغويّة والتي تدل بصورة جليّة على ثراء اللّسان العربي وخصوبته، فعلى سبيل المثال يسمّى الخمر بالعقار والقهوة والرّاح والرّحيق والخندريس، ويندرج التّرادف في باب التّحديد أو التّعريف لكنه لا يكتسي صبغة منطقيّة عند المناطقة أو المشائيين الذين استهدفوا التّعريف التّام الذي يقتنص الماهيّة بصورة كاملة، أمّا هذا النّوع من التّعريف فهو التّعريف الاسمي، أي تعريف لفظ بلفظ أوضح منه، وهو من التّعاريف المتداولة في حياتنا اليوميّة، فمثلا إذا سئل ما الغضنفر؟، قيل: بأنّه الأسد والليث والضّرغام، وقد تحدث أئمّة اللغة وفرسانها عن هذه الظّاهرة، فاجتهدوا وألفوا في التّرادف مصنفات كثيرة، منهم " العلاّمة مجد الدّين الفروزابادي صاحب القاموس المُحيط، ألف فيه كتابا سمّاه "الرّوض المَسلُوف فيما له اسمان إلى ألوف". وأفرد خلقٌ من الأئمة كتابًا في أسماء أشياء مخصوصة؛ فألّف ابن خلويه كتابا في أسماء الأسد، وكتابا في أسماء الحيّة. ذكر أمثلة من ذلك: "العسل" له ثمانون اسمًا

أوردها صاحب القاموس في كتابه الذي سماه ترقيق الأسل لتصفيق العسل. منها: "العسل، والضّرب، والجلس والورس، والأريُ، والإذواب، واللّومة، واللّئم، والنّسيل، والنّسيلة، والطّرم، والطّرام والطّريم، والدّستفشار... والحَلَب، والعكبر، والنّحل، والأصهانيّة"[3].

ونجد ظاهرة لغويّة أخرى لا تقل أهميّة على الأولى، وهي ظاهرة الاشتقاق المتداولة بين أهل اللّغة والتي تنبني على القياس، إنّ سر العربيّة باعتبارها لغة بيان يكمن في تلاحم وحداتها التي لا تعرف الاستقلال، ولا يمكن أن تشكّل وحدات منفصلة عن بعضها البعض، إذ كان نمو الفكر الإنساني وازدياد حاجاته المعرفيّة عبر مراحل التّاريخ له فائدة جمّة ودور فعال في اتساع نشاط اللّغة ونمو الثّروة اللّغويّة، ووجود هذه الظّاهرة أو الطّريقة ضرورة لازمة وحاجة ملحّة تقتضيها مستجدات العصر التي تطرح مشاكل كثيرة وخاصّة على مستوى التّرجمة، لذا نجد علماء اللّغة يلجؤون إلى اشتقاق الكلام بعضه من بعض، ويعرف الاشتقاق بأنّه: "نزع لفظ من آخر، بشرط مناسبتهما معنىً وتركيبًا، ومغايرتهما في الصّيغة"، [4] إنّ مفهوم الاشتقاق انطلاقا من تعاريف القدماء والمحدثين: "إنشاء فرع من أصل يدلّ عليه يتفق معه في المادة الأصليّة، وفي هيئة التّركيب يؤدّي إلى تقارب في المعنى والدّلالة كأحمر من الحمرة، وضارب من الضّرب"،[5] وبالتّالي فالاشتقاق يقوم على اتفاق بين الأصل والفرع في المادة اللّغويّة الأصليّة، ويتم إمّا عن طريق الإبدال أو القلب وتعتبر هذه الظّاهرة من سنن العرب وعاداتهم اللّغويّة، حيث نجد اللّغة تنمو وتتكاثر كحياة الكائن الحي الذي يتميز عن الجماد بوظائفه الحيويّة التي تضمن له استمراره وبقاءه، وعلماء اللّغة قديما وحديثا انصب اهتمامهم على المادة اللّغويّة بغض الطّرف عن المعنى، لأنّ اللّغة عندهم هي عبارة عن رموز اصطلاحيّة شفهيّة متّفق عليها اجتماعيًا، إذ أدركوا أنّ كل تغير في المبنى يترتب عنه تغير في المعنى، وهذا يدلّ بصورة جليّة أنّ هذه الطّريقة لا تجري كيفما اتفق، بل تجري وفق قواعد تحدّد طبيعتها، "وقد حصر العلماء التّغيرات التي تصيب المشتق مع المشتق منه في حوالي خمسة عشر موضعا، كزيادة حركة، أو زيادة حرف، أو زيادتهما معا، أو نقصان حركة، أو نقصانهما معا، إلى غير ذلك من التّغيرات التي ذكرتها الكتب عند تعرضها لموضوع الاشتقاق"،[6] ويظهر أثر الاشتقاق وتجلياته في اللّسان

وفصاحة اللّغة في اسم الفاعل واسم المفعول وأفعال التّفضيل وصيغ المبالغة، ومن خصائصها الجوهريّة صفة الإيجاز فهي في اللّغة العربيّة جبلة ونحيزة، أي طبيعة متأصّلة فيها حيث تأبى اللّغة العربيّة الحشو والإطناب والزّائد من الكلام، وهذه الظّاهرة اللّغويّة تضفي على اللّغة بعدا جماليا، لأنّها تعتمد على دقة انتقاء الألفاظ واختيار المعاني وتزيين الأسلوب حتى يصل المتكلّم إلى أقصى مراتب البيان.

كما أنّ للإيجاز بعدا نفسيًا، لأنّ غايته تنحصر في البيان، أي الفهم والإفهام الذي لا يخرج بدوره عن نطاق عمليّة التّواصل بين مرسل ومتلقي، وهذا الأخير لا يكون منفعلا، بل فاعلا يشارك في اقتناص المعاني الخفيّة وتبيان المراد فهذه الظّاهرة اللّغويّة، تعدّ منحى من مناحي البلاغة وأصدق دليل بأنّ لغة العرب لغة عقليّة تعطي الصّدارة للمعنى، إذ إنّ قلّة المبنى وتضييقه يؤديان إلى كثرة المعنى واتساعه، وقد تحدث علماء البيان بإسهاب عن هذه الظّاهرة الذّائعة عند العرب والمحبوبة لديهم لأنّها قائمة على الخفة التي تنسجم مع الطّبيعة الإنسانيّة التي تنفر من التّطويل والحشو والأساليب الملتويّة في الكلام والتي من شأنها أن تضلّل الخاصّي والعامّي على حد سواء، إنّ "الإيجاز مصطلح يدرس ضمن مباحث وعلم المعاني الذي هو أحد علوم البلاغة الثّلاثة، ويقسّمه البلاغيون قسمين: قصر وحذف. ويقال أوجز في كلامه إذا قصَّره، وكلام وجيز أي قصير، ومعناه في اصطلاح علماء البلاغة "تهذيب الكلام بما يحسن به البيان" وقد عرف إيجاز القصر صاحب الصّناعتين (أبو الهلال العسكري) بقوله: "أن يكون اللفظ القليل المشار إليه إلى معان كثيرة بإيماء إليها ولمحة تدل عليها"، كما حدّده أبو بكر الباقلاني(338هـ-402هـ) بأنّه" اشتمال اللّفظ القليل على المعاني الكثيرة"،[7] وشرط الإيجاز الإفادة وعدم الإخلال بالمعنى حيث يتجسّد في المثل العربي "ما قلّ ودلّ" ففي هدمه وعدم مراعاته هدم للبيان، يقول الرّماني في هذا السّياق: "الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبّر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبّر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز، والإيجاز على وجهين: حذف، وقصر فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام، والقصر بنيّة الكلام على تقليل اللّفظ وتكثير غير حذف"،[8] وبالتّالي هذه الخصائص تؤهّلها لتحتل الصّدارة بين اللّغات.

3. أهميّة اللّغة العربيّة: إنّ اللّغة خصيصة إنسانيّة، تميز الإنسان عن سائر الحيوانات العجماء، فهي تعبّر عن أفكارنا ومشاعرنا، وتنقلها للآخرين، عن طريق عمليتي التّحليل والتّركيب، وهي كذلك أداة ناجعة للتعبير عن مفاهيم عقليّة وقيم جماليّة وأخلاقيّة ليس لها مقابل في العالم الخارجي، أي تعبر عن عالم الشّيء في الأعيان وعالم الشّيء في الأذهان، زيادة على ذلك، أنّها تحافظ على التّراث التّاريخي الزّاخر بالذّكريات والأمجاد، وتعمل على نقله من السّلف إلى الخلف، لأنّ الأمّة كيان معنوي، هويّة وجذور وتاريخ، وأمّة بدون لغة في عداد الموتى، يقول مصطفى صادق الرّفاعي في شأن هذا الموضوع: "إنّ اللّغة مظهر من مظاهر التّاريخ، والتّاريخ صفة الأمة، كيفما قلّبت أمر اللّغة-من حيث اتصالها بتاريخ الأمّة واتصال الأمة بها-وجدتها الصّفة الثّابتة التي لا تزول إلاّ بزوال الجنسيّة وانسلاخ الأمّة من تاريخها(...) فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجودا متميزا قائما بخصائصه؛ فهي قوميّة الفكر"،[9] بل تعدّ اللّغة جوهر الوجود الإنساني فهي "مثوى الوجود وبيته" على حد تعبير الفيلسوف الألماني (مارتين هيدغر-M. Heidegger)،[10] وما يصدق على اللّغة عموما، يصدق على اللّغة العربيّة التي تخلق في أفرادها الشّعور بالانتماء إلى أمّة واحدة هي الأمة الإسلاميّة، وتقيم بينهم روابط متينة للتواصل، إذ تجمع بين أوصال أفرادها لتمنعهم من الشّتات، حيث نشعر إزاء بعضنا البعض بالمشاركة الوجدانيّة والمحبّة والأخوة التي تعتبر أسمى قيم الإنسانيّة، بفضلها أضحى الإنسان إنسانا، لذا كانت اللّغة روح الأمّة وحياتها على حد تعبير ساطع الحصري، ولكن تخاذلنا وخمولنا وسلبيتنا في مواجهة معارك الحياة واستكانتنا للوضع الرّاهن، قد ينعكس سلبا على لغتنا، لأنّها لا تنفك عن حال الإنسان العربي المسلم ووضعيته في هذا العالم الذي يعيشه ويتفاعل معه باستمرار، وعليه إنّ النّهوض من هذه الأزمة لا يكون إلاّ بتحويل الإنسان العربي من إنسان منفعل إلى إنسان فاعل، والاعتناء باللّغة وإثرائها عن طريق البحث العلمي الجاد.

إنّ موضوع اللّغة جدير باجتذاب اهتمام العلماء قديما وحديثا، لقد خصّص علماء البيان بمختلف منطلقاتهم لدراساتهم اللّغويّة حيزا واسعا في آثارهم تشمل العلوم النّظريّة التي تكتسب لذاتها والعلوم الآليّة كالمنطق وعلوم اللّغة كالنّحو والصّرف حيث تفاعلت العلوم الشّرعيّة مع العلوم اللّغويّة وخاصّة في استعمال هذه الأخيرة لآليات

منهجيّة متقاربة، واعتبروا اللّغة مقدّمة ضروريّة لا غنى عنها للتفتح على مختلف العلوم، بل كانت بمثابة مفتاحٍ عمومي يفتح كل أبواب العلم وخاصّة مجال الشّرع لأنّ استنباط الأحكام الشّرعيّة بصورة دقيقة وموضوعيّة، لا يتم إلاّ بفهم النّص الشّرعي وفقا للضوابط اللّغويّة والقواعد المخصّصة للتفسير، فاشترط علماء الأصول التّمكن من هذه الآلة عند الفقيه الذي يقوم بمهمّة الإفتاء، فأضحت اللّغة آلة العلم وصناعة ضروريّة، فلابد أن يكون الفقيه عالما باللسان العربي، وعادات العرب اللّغويّة وأساليبهم في التّخاطب، حيث يقول الشّافعي في هذا الصّدد: "ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السّنن وأقاويل السّلف، وإجماع النّاس واختلافهم ولسان العرب"[11].

اشترط العلماء مجموعة من الشّروط لممارسة الاجتهاد لحفظ الدّين وإحاطته بسياج من الموضوعيّة يقيه من الأهواء والنّزوات الشّخصيّة، إذ لابد أن يتحلّى الفقيه أو الأصولي بسعة الاطلاع ملمًّا بالعلوم الشّرعيّة كعلوم القرآن وعلم الحديث وعلم أصول الفقه ما يعرف بأدلة الأحكام، وعلوم اللغة ومعرفة الاجتماع والاختلاف أضف إلى ذلك، لا بد أن يستوفي المقاييس التي وضعها علماء الحديث لتمييز صحيح السّنة من سقيمها أو ما يعرف بعلم الجرح والتعدّيل، واشترطوا البلوغ والإسلام وقوة الضّبط والعدل، أي السّلامة من الفسوق، لأنّ العلم لا يحمله إلاّ العدول الثّقاة ويتصف الفقيه بالأمانة والنّزاهة، أي يتوفر على مقومات خاصّة تميز المجال الشّرعي، يقول الرّسول-صلّى الله عليه وسلّم-"من يرد الله به خيرا يفقهه في الدّين" لكن ميز الشّافعي بين مستويين في العلم واللّغة، علم العامّة وعلم الخاصّة، المستوى الأوّل يقتصر على تعلّم اللّسان العربي للقيام بالفرائض من صلاة وتسبيح وتلاوة كلام الله وهو مجال فرض عيّن، بينما الثّاني خاصّ بالعلماء باعتبارهم ورثة الأنبياء فهم مطالبون بإتقان اللّغة العربيّة حتى يصل الفقيه إلى النّموذج المثالي الذي يحتذى به وهو الفصحى، والتّمكن كذلك من علومها كعلم الصّرف وعلم الدّلالة وخاصّة علم النّحو باعتباره منطقا خاصا للسان العربي، لأنّ مفسّر كلام الله يستعين به لمعرفة السّياق الدّاخلي للآية، وبالتّالي إنّ القدر من اللّغة يساوي القدر من العلم، والمعرفة نسبيّة كلما يزداد الإنسان معرفة باللّغة وقواعدها يزداد فهما لكتاب الله ومعرفة لأحكامه، يقول

الشّافعي: "فعلى كل مسلم أن يتعلّم من لسان العرب ما بلغه جهده حتّى يشهد به أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا عبده ورسوله، ويتلو به كلام الله وينطق بالذّكر فيما افترض عليه(...) وما ازداد من العلم باللّسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيرًا له، كما عليه أن يتعلّم الصّلاة والذّكر فيها ويأتي البيت وما أمر بإتيانه ويتوجّه لما توجه له ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب إليه لا متبوعا[12]، إنّ المستوى الأوّل لا يمكنه من معرفة أحكام الشّرع واستثمار النّص لمعرفة أحكامه، إذ يبقى دوما تابعا للعلماء يسألهم ويستفسر حول الأمور الفقهيّة وخاصّة في التي لم يقطع فيها الشّرع بنص، "وفي كلام الشّافعي من أحكام الله شيئان:

-أوّلهما: أنّ تعلّم لسان العرب فيما زاد على المقدار الذي هو فرض عين خير للمؤمن يؤجر عليه وإن لم يكن هذا الزّائد فرضا.

-ثانيهما: أنّ من اقتصر على هذا المقدار فهو في أمور الدّين تابع لا متبوع لأنّ هذا المقدار لا يؤهّله لمعرفة الأحكام من الكتاب والسّنة بنفسه فلذلك هو تابع لا متبوع(...) أمّا المتبوع فله في كلام الشّافعي رحمه الله بيان خاص لما يحتاجه من اللسان العربي"[13].

إنّ للغة العربيّة عند الشّافعي خصائص تتفرد بها وهي:

أ-اختلاف النّاس في وظائفهم النّفسيّة وقدراتهم العقليّة يوازيه اختلافهم في استعدّاداتهم اللّغويّة، فالتّفاوت قانون الطّبيعة، أي أنّ ملكة اللّغة تتفاوت بين أفرادها في البيئة اللّغويّة الإسلاميّة، فكل حسب طاقاته وجهده، إذ هناك لغة للعامّة والجمهور ولغة للخاصّة، أي "إنّه رأى اللّغة تتوَّزع على السّنة أهلها بشكل متفاوت، كلٌ يتكلّمها على قدر مخزونه منها، وقدراته الذّكائيّة، وخبراته السّابقة، وثقافته، كل فرد في الجماعة اللّغويّة الواحدة لديه قدر من لغة قومه يشارك به ويتبادل به التّواصل مع جماعته"،[14] يقول الشّافعي: "وهم في العلم طبقات: منهم الجامع لأكثره. وإن ذهب بعضُه. ومن هم الجامع لأقلّ ممّا جمع غيره"[15].

ب-إنّ اتساع اللسان العربي بثروته اللغويّة الهائلة، لا يجعله في متناول الجميع ولا يمكن للإنسان العادي أن يحيط به، بل هو حكر على النّبي فحسب، لأنّ الأنبياء وهم الصّفوة المختارة لهم صفات خاصّة تؤهّلهم لامتلاك العلم الكلي الكامل، لأنّ مصدر علمهم الوحي، علّمهم الله عزّ وجلّ، فهم الوسطاء كلّفهم الله بمهمّة عظيمة هي نشر

الرّسالة التي لا يستطيع حملها إلاّ من وسع علمه، إذ يعدّ التّبليغ قوام حياتهم وأساس وجودهم، بينما يتميز علم النّاس بأنّه نسبي ومحدود بمحدوديّة قدراتهم لكنّه يتكامل عبر العصور، لأنّ الإنسان ينشد دوما المثل الأعلى باعتباره غاية تتميز بالتّعالي والتّدرج، يقول محمّد فتح الله كُلن إنّ: "القدرة الإنسانيّة والطّاقة الإنسانيّة والإرادة الإنسانيّة لا تستطيع تجاوز إطار القوانين الفطريّة. أجل، فمهما ترقى العلم الإنساني وتقدّمت التّكنولوجيا فلا يمكن تجاوز حدود المعجزات، لأنّ هذه الحدود هي السّاحات التي يجول فيها الأنبياء العظام. بمعنى أنّ العلم الإنساني يستطيع الوصول إلى الحدود التي تبدأ بعدها المعجزات"[16].

تزداد أهميّة اللّغة بمدى ذيوعها وانتشارها واتساع رقعتها في أنحاء المعمورة وبكثرة متكلميها، لقد انتبه الشّافعي لهذه الحقيقة الهامة ولم يجانب الصّواب، "وهي أنّ اللّغة أعم وأشمل من العلوم المختلفة ومن علم العلماء في كل التّخصّصات"،[17] يقول الشّافعي في هذا الشّأن: "واعلم أكثر اللسان في أكثر العرب أعمُ من علم أكثر السّنن في العلماء"[18]ويتجلى هذا خاصّة إثر الفتوحات الإسلاميّة وتفاعل الحضارة الإسلاميّة مع الحضارات الأخرى، حيث أضحى اللّسان العربي هو المهيمن بانتشار الإسلام وتوغّله في جل بقاع الأرض.

وكذلك سلك شيخ الإسلام تقي الدّين ابن تيميّة الفقيه الحنبلي المسلك نفسه، فأشاد بدور اللّغة العربيّة ومكانتها، لأنّ التّفقه في الدّين وفهم الشّرع، لا يتسنى عنده إلاّ بالتّمكن من اللّغة العربيّة حتى تصبح في يد المجتهد أداة طيّعة يكيفها حسب أغراضه، يقول ابن تيميّة في هذا الشّأن: "فإنّ نفس اللّغة العربيّة من الدّين، ومعرفتها فرض وواجب، فإنّ فهم الكتاب والسّنة فرض، ولا يفهم إلاّ بفهم اللّغة العربيّة"،[19] ويؤكّد أيضًا على ضرورتها وواجب معرفتها، لأنّ التّعود عليها يخلق في المتعلّم اتّجاهات نفسيّة، فهي تؤثّر في عقله وفي دينه تأثيرا فعالا، ممّا يترتب عنه مشابهة الصّحابة والتّابعين على حد تعبيره، فهم أسوتنا الحسنة، وكان الدّاعي الأوّل والمباشر لهذا الاهتمام هو جريان الخطاب الشّرعي على لغة العرب، فالقرآن الكريم هو المصدر الأساسي في التّشريع الإسلامي، كان عربيا فصيحا معجزا في معناه ومبناه إذ "يعدّ معجزة لا تصل إليها الطّاقة البشريّة. إنّ معجزة القرآن معجزة أدبيّة وبيانيّة لا يمكن الوصول إلى أفقها. فكل الأشعار

والقطع الأدبيّة البليغة التي سحرت الإنسان بجمالها لا تستطيع الاقتراب فقط إلى عتبة القرآن الذي يعدّ الأفق النّهائي للبلاغة"[20] ولذلك فاستجلاء معنى الخطاب، يتوقف على عامل الكفاية اللّغويّة، حيث يتمكن منها العالم في جميع مستوياتها، وهكذا فاعتدادهم باللّغة العربيّة صناعة هامّة لتحليل الخطاب الشّرعي، فهي تحتل الصّدارة الأولى للعلوم المساعدة للبحث الأصولي.

4. سلطة اللّغة: ولا تعتبر اللّغة كيانا مستقلا بذاته فهي مشروطة بوسطها الحضاري، إذ تخضع لحتميّة الشّروط الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة، وقد انتبه العلماء وأهل البرهان قديما وحديثا لهذه الظّاهرة، حيث ربطوا بين اللّغة وسلطة الدّولة ربطا محكما وأدرك إمام الظّاهريّة ابن حزم الأندلسي(994م-1406م)، ومؤسّس المذهب الخامس بجدارة واستحقاق حقيقة هذا الأمر، حيث تميز بنظرته النّافذة المتوغلة في حيثيات الأمور، وأقر بأنّ قوة اللّغة من قوة أهلها وسلطانها فهو الفقيه الذي تألق في الغرب الإسلامي من جهابذة الفكر الإسلامي، يتميز بقوة المحاجة يقول مثبتا أنّ ما "يقيد لغة الأمة وعلومها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأمّا من فلتت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذّل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر، وربّما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود عملهم"،[21] إنّ هذه النّظرة الثّاقبة بعيدة الغور والمرامي وكأنّها تصف الوضع الرّاهن وحالنّا اليوم، حيث نعيش تحت هيمنة الدّول المتقدّمة والعولمة اللّغويّة إذ أضحت اللّغة العربيّة عتيقة، تتهم في عقر دارها بأنّها لغة شعر وأدب، أي لغة المجاز والقول المزخرف والمنمق بعيد كل البعد عن اللغة العلميّة الصّارمة والدّقيقة فأضحت لا تواكب العصر والتّقدم العلمي المريع الذي يشهده هذا العصر، لأنّ كل الشّعوب العربيّة والإسلاميّة مغلوبة على أمرها، تعيش تحت وطأة الاستعمار والتّبعيّة لا تمتلك شروط بناء الحضارة لغياب الأمن وعدم الاستقرار، وانتشار الحروب المدمّرة التي قضت على حق الحياة باعتباره حقا طبيعيا، وبالتّالي تعتبر اللّغة مرآة عاكسة لقوة الدّولة وسلطانها، تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، وكذلك نجد العلاّمة ابن خلدون حضرمي (1332-1406م)، قد سلك المسلك نفسه عندما ربط بين اللّغة وسلطة الدّولة، لكنّه عندما أقر بأنّ أساس الملك هو التّغلب والسّيطرة، فقد فسر قوة اللّغة من هذا

الجانب، إذ اللّغة العربيّة قد انتشرت وتوغلت في أنحاء العالم وكانت هي اللّغة المسيطرة في عهده نتيجة لهيمنة العرب وسيطرتهم واستيلائهم على مقاليد الحكم في تلك الفترة، فيقول: "اعلم أنّ لغات أهل الأمصار إنّما تكون بلسان الأمّة أو الجيل الغالبين عليها أو المختلطين لها، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلاميّة كلّها بالمشرق والمغرب لهذا العهد، لأنّ النّاس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب"[22].

وقد أضاف عاملا آخر أكثر فعاليّة وقوة من عامل الغلبة هو عامل الدّين فيقول: "فسد اللسان العربيّ لذلك، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسّنة اللّذين بهما حفظ الدّين، وصار مرجعا لبقاء اللّغة المضريّة من الشّعر والكلام"،[23] إنّ قداسة اللّغة العربيّة وقوّتها تابعة لقداسة القرآن وعظمته، فهي لغة هذا الدّين القيّم فالعلاقة بينهما كعلاقة الأصل بالفرع، إذ هي اختيار ربّاني، اصطفاها الله عن سائر لغات العالم لتبليغ ونشر رسالة الإسلام العالميّة والتّعبير عن معجزة الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم- المعنويّة التي ستبقى إلى أبد الدّهر صامدة أمام تحديات كل العصر وإن كره الكارهون وهم أعداء الله في كل الأعصار والأمصار الذين يتربّصون للإسلام والمسلمين على حد سواء، لأنّ ملّة الكفر واحدة وإن تعدّدت نحلها ومذاهبها، فإذا كانت اللّغة العربيّة قويّة في ذاتها فاستمرارها وديمومتها مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود القرآن وأزليته باعتباره كلام الله المعجز لخاصّتهم وعامتهم، بل لجمهور مطلق غير محدود بزمان ومكان معينين، حيث أدرك المستشرق الفرنسي (ر. أرنلدز Roger - Arnaldez) (1911-2006) هذه الحقيقة الهامّة، وقد ذكر في كتابه الموسوم بـ "مظاهر الفكر الإسلامي والأخبار والأوامر عند ابن حزم" "أنّ القيمة العليا للقرآن هي التي شكلت قيمة اللّغة العربيّة(...)، إنّ تحقيق الوضوح بدون لبس وغموض في كتاب الله جلّ ثناؤه القرآن العربيّ، يشترط الوضوح المماثل في اللّغة العربيّة (...)، ونجد أنّ كل آثار ابن حزم تمحورت حول إثبات (...) الكفاية اللغويّة لأنّها تعتبر شرطا ضروريا حتى يتسنّى تحقيق الفهم في كل شيء ومعرفته"،[24] وإذا كانت أهميّة اللّغة، تتجلى في الانتشار والاستعمال، فاللّغة العربيّة ستبقى وتنتشر في كل أنحاء المعمورة بفضل الميزة التي تفرد بها الإسلام عن سائر الدّيانات وهي الصّفة العالميّة، حيث نسمع كل يوم بالآلاف من الأوروبيين

يعتنقون الإسلام ويتعلّمون اللغة العربيّة ويحبونها ويعترفون بمكانتها نتيجة شغفهم بالإسلام.

إنّ هناك مسألة هامّة من الضّروري الإشارة إليها وهي أنّ القرآن المترجم، لا تذعن له النّفوس، ولا يستميل الآذان كالقرآن العربي، لأنّ إعجاز القرآن مرتبط بإعجاز لغته التي لا ينفك عنها، فهو معجز بنظمه، لكن لا يمكن أن نغفل دور القيمة الجماليّة التي تضمنها النّص القرآني والتي لها تأثير فعال خاصّة على النّفوس التي تتوّقها وترغب فيها، وتتلذذ بجمالها إلى حد الولع، فالجمال كقيمة موضوعيّة متضمن في النّص القرآني موجودة في جودة ألفاظه وسبكها وجزالتّها وحسن انتقائها إلى جانب إيقاعها وجرس نغماتها التي تزداد النّفوس خشوعا وإذعانا عند سماعها وهذا ما عبر عنه الباحث محمّد أبو زهرة بـ"موسيقى القرآن"، حيث يقول في هذا الشّأن: "وإنّ هذا الكلام يفيد فائدتين : إحداهما-أنّ موسيقى القرآن الكريم ونغماته هي التي استرعت أسماع العرب، واستهوت نفوسهم، ورأوا لها حلاوة، وعليها طلاوة ليست من الشّعر(...)، وأنّ ذلك التّأليف في النّغم والجرس مع علو المغزى، والمعنى وإحكام التّعبير، ودقّة الإحكام، لا يمكن أن يصل إليه أحد(...)، وإنّ الدّليل على أنّ جرس الآيات القرآنيّة بما حوت من حروف وكلمات هو من الإعجاز أنّ الله تعالى أمر بترتيل القرآن لا مجرّد القراءة، فقد قال تعالى: ﴿**ورتل القرآن ترتيلا**﴾[سورة المزمل الآية: 4](...)، إنّما التّرتيل قراءة منغمة تنغيما يظهر التّناسق في الحروف والجمل والآيات ويكشف معانيها، ونغماتها، وتلك هي موسيقى القرآن"،[25] إنّ اللّغة العربيّة هي التي حملت لواء الإسلام، فكانت مصدر وحدة العرب والمسلمين قديما وستكون مصدر وحدتهم في المستقبل بإذن الله، لأنّها تشكل همزة وصل بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وما ذهب إليه ابن حزم وابن خلدون هو ما يعرف في فلسفة اللّغة المعاصرة "بخطاب السّلطة" الذي تحدث عنه (بيير بورديو-Pierre Bourdieu) (1930-2002) والكثير من الفلاسفة المعاصرين، حيث انتقد (بيير بورديو) وهو عالم اجتماع فرنسي موقف (جون لانجشو أوستين- John L.Austin) (1911-1960) في نظريته الموسومة بـ "الأفعال الكلاميّة"، وقوله أنّ للغة سلطة وقوة تستمدّها من ذاتها، بينما نجد برديو ينفي وجود هذه الأخيرة، ويصر على وجود خطاب السّلطة فيقول: فليست سلطة الكلام إلاّ السّلطة

الموكولة لمن فوض إليه أمر التّكلّم والنّطق بلسان جهة معينة، والذي لا تكون كلماته (أي محتوى خطابه وطريقة تكلّمه في ذات الوقت) على أكثر تقدير، إلاّ شهادة من بين الشّهادات الأخرى، على ضمان التّفويض الذي أوكل للمتكلّم أقصى ما تفعله اللّغة هو أنّها تمثل هذه السّلطة وتظهرها وترمز إليها" [26].

بينما نجد (رولان بارت-Roland Barthes)(1915-1980)، باعتباره فيلسوفا وناقدا أدبيا، قد أعلن موت المؤلف متأثرا بفكرة موت الإله عند الفيلسوف الألماني نيتشه، الذي اعتبر اللّغة بيت السّلطة، ونجد بارت أعطى لمفهوم السّلطة الذي تنبني عليه اللغة معنى واسعا فهي لا تصدق على الميدان السّياسي فحسب، بل تتجلى في كل المؤسّسات الاجتماعيّة ومظاهر الحياة، بل حاضرة في كل شيء فيقول: "ها نحن نرى أنّ السّلطة حاضرة في أكثر الآليات التي تتحكّم في التّبادل الاجتماعي رفاهة، في الدّولة، وعند الطّبقات والجماعات، ولكن أيضًا في أشكال الموضة والآراء الشّائعة، والمهرجانات... والعلاقات الأسريّة والخاصّة وغيرها" [27].

4.خاتمة: إنّ الرّغبة في الصّعود إلى العلى والارتقاء إلى السّؤدد لن يتحقّق بدون بحث علمي جاد، واهتمام الدّول الإسلاميّة عموما والعربيّة خصوصا بالعلوم التّجريبيّة والاستنباطيّة، وتحرّرها من ظاهرة التّخلف وكل قابليّة للخضوع لمنطق الأقوى وممارسة الحريّة على جميع الأصعدة سواء السّياسيّة منها أم الاقتصاديّة أم الاجتماعيّة، إذ الحريّة حريات، لأنّ كل تقدّم علمي سيسهم بالضّرورة في نموّ اللّغة وثرائها ومواكبتها للعصر، وإن أردنا تأسيس فلسفة لغويّة لسانيّة أو نظريّة لسانيّة عربيّة معاصرة، فإنّنا ملزمون بالاعتناء بتراثنا اللغوي الإسلامي القديم وتمحيصه وتتبع سلسلة المراحل التي اجتازها عبر صيرورته التّاريخيّة، لأنّ الاهتمام بالماضي يجعلنا نلتمس القوة لمجابهة مشاكل الحاضر والاستشراف نحو المستقبل.

ومن الواجب إحقاق الحق للعربيّة، وإبراز عظمتها وثرائها، والوقوع على شيء من خباياها لأنّها قادرة على العطاء من جديد، لكنّ هذا يستلزم يقظة أهلها ووعيهم بأهميّتها، فقوة اللّغة من قوة أهلها وسلطانها على حد تعبير ابن حزم الأندلسي.

سأورد فيما يأتي ما توصّلت إليه من نتائج في هذا المقال، وهي:

-إنّ الافتخار باللغة العربيّة من شيم المسلم الرّفيعة، لأنّ رجال الرّعيل الأوّل والتّابعين هم أسوتنا الحسنة، فقد اهتموا باللغة العربيّة وأدركوا دورها ومنزلتها الرّفيعة لأنّ التّفقه في الدّين وفهمه فهما صحيحا، لا يتسنى عندهم إلاّ بالتّمكن من اللسان العربي باعتباره الصّورة المثلى للغة؛

-شكّل إسهام علماء البيان بمختلف مرجعياتهم منطلقا لكثير من المباحث التي تناولها الدّرس اللغوي الحديث، وهذا يدل بصورة جليّة أنّ تاريخ الفكر الإنساني هو تاريخ تعاقب وتتابع، يشكل في جوهره حلقات متّصلة، لا تعرف الانفصال إلاّ بصورة مؤقّتة ونسبيّة؛

-إنّ مصادر القوة صفات ذاتيّة كامنة في اللّغة العربيّة التي تحمل قيمتها في ذاتها لكنّ سر بقائها وديمومتها مرهون بوجود القرآن الكريم وقوته وسعي علمائها وقادتها وعملهم الدّؤوب لأجل أن تحتلّ اللّغة العربيّة الرّيادة والسّيادة في كلّ أنحاء المعمورة.

5. قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربيّة:

1.ابن تيميّة، اقتضاء الصّراط المستقيم، م1، تحقيق: ناصر بن عبد الكريم، مكتبة الرّشد الرّياض، (د-ط) (د-ت).

2.ابن جني، الخصائص، ج2، تحقيق: محمّد علي النّجار، المكتبة العلميّة بيروت، (د-ط) (د-ت).

3.الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1 .1981

4.ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، دار الفكر، بيروت، (د-ط) .2007

5.الجاحظ، رسائل الجاحظ، المقالة العثمانيّة، ج4، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون دار الجيل، بيروت، (د-ت).

6.الجاحظ، الحيوان، ج3، مطبعة مصطفى البّابي وأولاده، مصر، ط2، .1965

7.الجرجاني، التّعريفات، دار الفكر، بيروت، ط1، .2005

8.السّيوطي، المزهر، ج1، دار الحديث، القاهرة، .2010

9.الشّافعي، الرّسالة، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، مطبعة مصطفى البّابي الحلبي وأولاده مصر(د-ط)(د -ت).

10.الغزالي، المستصفى، ج1، تحقيق: احمد زكي حماد، دار الميمان، السّعوديّة (د-ت).

11. الخطّابي، الرّماني، الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف مصر ط3، (د-ت).

12.بلقاسم بلعرج، لغة القرآن الكريم، دار العلوم، الجزائر، (د-ط) (د-ت).

13.رولان بارت، درس السّيميولوجيا، ترجمة: ع. بنعبد العالي، دار توبقال المغرب، (د-ط) (د-ت).

14.عبد الجليل منقور، علم الدّلالة أصوله ومباحثه في التّراث العربي، ديوان المطبوعات الجزائريّة، الجزائر، ط1، 2010.

15.فرديناند دي سوسير، دروس في الالسّنيّة العامة، ترجمة: صال القرمادي وآخرون الدّار العربيّة للكتاب، بيروت، ط1. 1985.

16.محمّد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، (د-ط) (د-ت).

17.محمّد عابد الجابري، بنيّة العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة بيروت، ط1 .1986

18.محمّد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمّد علي، دار النّيل، مصر، ط3 .2005

19.مختار عطيّة، الإيجاز في كلام العرب، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، (د-ط)(د-ت).

20.مصطفى صادق الرّافعي، وحي القلم، ج3، المكتبة العصريّة، (د-ط)(د-ت).

6.المراجع باللغة الفرنسيّة:

-E. Benveniste : Problèmes de linguistique générale, 1, tel Gallimard, paris,1966.

-M. Heidegger: Chemins qui mènent nulle part, traduit de l'Allemand par Wolf Gang Brokmeir, Tel Gallimard, nouvelle édition.

-Roger Arnaldez : Aspects de la pensées musulmane Akhbar et Awamir chez Ibn Hazm de Cordoue, 2eme édition Librairies philosophique, J, Vrin, Paris.

7.المقالات:

1.طيب الدّبة، تحليل الخطاب وأزمة المعنى عند الأصوليين، مجلّة الخطاب جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد8،2011 .

2.حسنة عبد الحكيم عبد الله الزّهار، اللغة عند الإمام الشّافعي ممثلة للغة الأصوليين صحيفة دار العلوم، القاهرة، العدد 16، 2000، www.allukak.net

8.الهوامش

1 الجرجاني، التّعريفات، دار الفكر، بيروت، ط1، 2005، ص41.

2 المصدر نفسه، ص ص138.

3 السّيوطي، المزهر، ج1، دار الحديث، القاهرة، (د- ط)، 2010، ص ص334- 335.

4 الجرجاني، التّعريفات، (مصدر سابق)، ص23.

5 محمّد بلعرج بلقاسم، لغة القرآن الكريم، دار العلوم، الجزائر، (د- ت)، ص19.

6 المرجع نفسه، ص22.

7 مختار عطيّة، الإيجاز في كلام العرب، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، (د- ت)، ص18.

8 الخطابي، الرّماني، الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، (د- ت)، ص76.

9 مصطفى صادق الرّفاعي، وحي القلم، ج3، المكتبة العصريّة، بيروت، (د- ت)، ص ص28- 29.

10 M. Heidegger, Les chemins qui mènent nulle part, traduit de l'allemand par Wolf Gang Brokmeir, p373. tel Gallimard, nouvelle édition

11 الشّافعي، الرّسالة، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، مطبعة مصطفى البّابي وأولاده، مصر (د- ت)، ص510.

12 الشّافعي، الرّسالة، (مصدر سابق)، ص48.

13 محمود أحمد الزّين، أهميّة اللغة العربيّة في فهم القرآن والسّنة، دائرة الشّئون الإسلاميّة دبي، ط1، 2009، ص ص11- 12.

14 حسنة عبد الحكيم عبد الله الزّهار، اللغة عند الإمام الشّافعي ممثلة للغة الأصوليين صحيفة دار العلوم، القاهرة، العدد 16، 2000، ص19. www.allukak.net

15 الشّافعي، الرّسالة، (مصدر سابق)، ص43.

16 محمّد فتح الله كُلن، العصمة النّبويّة، ترجمة: أرخان محمّد علي، دار النّيل، مصر ط3 2005، ص61.

17 حسنة عبد الحكيم عبد الله الزّهار، (مرجع سابق)، ص19.

18 الشّافعي، الرّسالة، (مصدر سابق)، 44.

19 ابن تيميّة، اقتضاء الصّراط المستقيم، م1، تحقيق: ناصر عبد الكريم، مكتبة الرّشد الرّياض، ص469.

20 محمّد فتح الله كُلن، العصمة النّبويّة، (مرجع سابق)، ص62.

21 ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، المكتب الإسلامي، بيروت، (د- ط) 2007، ص30.

22 ابن خلدون، المقدّمة، تحقيق: محمّد الشّامي، دار الكتاب الحديث، الجزائر، (د- ط) ص443.

23 المصدر نفسه، ص444.

24 R.Arnaldez, Aspects de la pensée musulmane, Akhbar et Awamir chez Ibn Hazm de Cordoue, 2éme édition, Librairies philosophique J.Vrin, Paris, p214.

25 محمّد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، (د- ت)، ص326.

26 زواوي بغورة، الفلسفة واللغة، دار الطّليعة، بيروت، ط1، 2005، ص188.

27 رولان بارت، درس السّيميولوجيا، ترجمة: ع. بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب، (د- ت)، 11.